في نجاة نصارى اليوم.

قال أحدهم: هل المسيحون كفار طبقاً لقوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ...)

الإجابة: لا، وهذه الاية والآيات الاخرى المشابهة لها في المضمون والمتكررة في القرآن تتحدث عن الرهبان المسيحيين الذين ادخلوا عقيدة التثليث الى المسيحية وكرسوها كإعتقاد كنسي رسمي في مجمع نيقية الشهير، وهؤلاء كفرو بلا شك.

أما عموم المسيحيين فلا يجوز تسميتهم ب (الكفار) قطعاً، لأن الله سماهم بأهل الكتاب ورتب لهم احكاماً شرعية خاصة ليست للكافر، فيجوز أكل ذبيحتهم والزواج منهم وقد امرنا ببرهم ومودتهم والقسط اليهم بآيات صريحة قرآنية، وهذه الأحكام لا تجوز بحق الكافر. وهذا معلوم في ديننا بالضرورة!

أما نحن فسنرُد على هذا الادعاء وفق كلام الله عز وجل و رسوله عليه الصلاة و السلام، و على أصول العدلية، رفع الله قدرهم، فنقول: ادعاء انحصار الكفر فيمن قال لا غير دعوى بلا برهان.

فإن قلت: هؤلاء المسيحيون لم تقم عليهم الحجة، لأن السمع لا يكفي.

قلنا: هذا القول هدم لأصول الاعتزال، ولا عبرة بأي قول صدر عمن صدر، فمعلوم أن أول الواجبات هو النظر المؤدي إلى معرفة الله عز وجل، و منشأ هذا النظر هو الخوف، فالداعي و الخاطر يثيران الشك في الإنسان، الأمر الذي يجعله مترددا في معرفته و ما إذا كان على حق أو باطل، على صواب أو على خطأ، و هذا يجعله أمام موقف يخاف فيه من تلك المعرفة، فمع سماع هذه الكثرة من الأقاويل، لا يأمن الإنسان أن يكون الحق مع أحد المدعين له، فيخطر الله في باله أنه إن لم ينظر فقد يعاقب، لذلك قالوا إن معرفة الله لطف، و عليه فالمسيحيون المقلدون لم ينظروا، و عليه فهم لم يقوموا بأول الواجبات العقلية، و الكلام فيمن سمع بالنبي عليه الصلاة و السلام، و ليس الكلام فيمن لم يسمع، فتنبه، فالله يقول: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا"، فإن قلت: أ لم يفسرها الزمخشري بقوله: فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لئلا يقولوا: كنا غافلين فلو لا بعث إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل. انتهى.

قلنا: الآية إنما تعرضت لنفي وقوع التعذيب قبل الرسول لا نفي استحقاقه. فالمعتزلة البصريون لم يقولوا بوجوب وقوع العذاب عقلا بل قالوا باستحقاقه، و فرق بين الأمرين. فتأمل. بعد أن عرفت معنى النظر ووجوبه، ننتقل للتقليد فإنه لازم عن الكلام حول ذلك، فنقول، التقليد فاسد، و ما يدل عليه أن المقلد إما أن يعلم أن المقلّد محق، أو لا يعلمه، فإن لم يعلمه، و جوّز كونه مخطئا، لم يحل له تقليده، لأنه لا يأمن أن يكون كاذبا، و جاهلا

في اعتقاده، و إن كان عالما بإصابة المقلد فإما أن يعلمه اضطرارا و ذلك محال، أو بدليل و هو قولنا، أو بالتقليد فقط، فيجب في المقلد أن لا يعلم ما يعتقده إلا بالتقليد، و ذلك يوجب إثبات مقلدين لا نهاية لهم. فإذا كان ذلك كذلك، علمت فساد قولهم بكون الكفر خاص بالقائل لا بالمقلد، إذا تقليد الكافر كفر، و الشاك في كفر الكافر كفر، مع عدم وجود شبهة في كفره، كيف و هو مصرح بكون الله ثالث ثلاثة، فإذا علمت هذا، و علمت أن المعتزلة كانوا أعظم جلادين للتشبيه و التجسيم و الجبر، و قد كفّر منهم جماعة للمشبهة بل للصفاتية من الأشعرية، علمت أن هؤلاء المسيحين كفرة، لقولهم بوجود ثلاثة آلهة. و هذا يفهمه العامي من الناس فضلا جاهل.

فإن قلت: ألم يقل الجاحظ أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية، إن كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وإن لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور . وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى إذ استد عليهم طريق المعرفة.

قلنا: الكلام في النظر من حيث عدم معرفة الوجوب، فنسأل: ما منشأ عدم المعرفة؟ هل لعدم السمع الموجب للخوف الموجب للنظر؟. إن كان ذلك كذلك فقد قلنا أن الله لا يعذب قوما إلا بعد إقامة الحجة عليهم، و النصارى اليوم الحجة عليهم قائمة، و هي القران وحده، فقوله تعالى: "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا احد" لا يلزم من فهمها وجود نبي و لا وجود شيخ، بل يفهمها الصبي و الشيخ، فالآية حجة على النصارى، بعد إعمال العقل فيها، فإن لم يعملوا عقولهم فسيقولون "لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير". و الجاحظ هنا بالمناسبة لم يتكلم عن حكم المقلد كالنصارى اليوم، فلا وجود لأي حجة في كلامه ليتشبث بكلامه.

وأما قول الجاحظ إن الآثم هو المعاند حصرا فمبني على نظريته في المعرفة، لأنه من أصحاب المعارف، فالمعرفة تقع عنده ضرورة عند قصد النظر، وتلك المعرفة الضرورية، مما لا اختيار له فيها، لذلك هو معاقب، لكن مع هذا فلا حجة لهم في هذا، لأن أول الواجبات عنده هو القصد أو إرادة النظر، لأنها مما يحصل بالاختيار، فهؤلاء النصارى لم يقصدوا النظر، لأنهم لم يعرفوا وجوب النظر حتى يقصدوه، ونحن قد بينا أنه واجب، بل أول الواجبات العقلية على المكلف، والعبرة ليست بكلام الجاحظ إنما بالحق والدليل.

أما قولهم: إن الله لا يدخل فقط المسلمين للجنة، فوهم، فالله تعالى لم يخلق الجنة لعابد الصنم، فلم لا تجوزون أن يدخل عابد الصنم الجنة، فقط لأن آباءه و اجداده كانوا على ذلك من الكفر و البهتان، فهو مسكين مجرد مقلد كالبهيمة، فما ذنبه، فالكلام بهذا اللحاظ، فمن عبد أول صنم هو من يدخل النار لا من اتبعه، فاعتبر أيها الطالب، و تأمل لازم قولهم فإنه الكفر بعينه، ثم كيف يدخل الفاسق في النار و يخلد فيها، فقط لأنه زنا، أما لو أشرك بالله، فإنه له الجنة دون حساب، بل قد يكون مع الأنبياء و الصديقين و الشهداء و الأولياء، ثم العجب،

ما الخلاف بينهم و بين من جوز إدخال الأنبياء و المرسلين للنار و إدخال فرعون و النمرود و أبي لهب للجنة و الفردوس، نعوذ بالله من الخذلان.

أما قولهم: " لأن الله سماهم بأهل الكتاب ورتب لهم احكاماً شرعية خاصة ليست للكافر" فأعجب، إذ هل يكفي في كوننا نعامل النصراني معاملة الإحسان أن الكفر زائل عنه. أو هل مجرد كون الزواج حلالا من الكتابيات أن صفة الكفر عنهم زائلة؟

قال تعالى: "وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" و خصص في آية أخرى الزواج من الكتابية بقوله: "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين". و التخصيص لا يرفع حكم الكفر و الشرك، و ذلك من قبيل تخصيصه عدم مغفرة ذنوب الفساق لعدم التوبة، بعد تعميمه بقوله: "إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء"، و إلا فنحن نسأل: هل أهل الكتاب مشركون بالله في العبادة في نفس الأمر أم لا؟ إن قال: نعم، كفى الله المؤمنين القتال، و ظهر أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم، لأن الشرك كفر، و أهل الكتاب مشركون و عليه هم كفار، و إن قال: أنهم ليسوا مشركين في نفس الأمر، طرحت العقل و قلبت الحقائق، و لم يعد هناك اعتزال إلا اعتزال الحق. إن قلت الشرك ههنا يقصد به عبدة الأصنام و الأوثان. قلنا: قال تعالى: "وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ"، و قوله: "أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ". فهل النصارى لهم إله غير الله أم لا؟ إن قلت: نعم، فهل عبادة إلهين شرك و كفر أم لا؟ و إن قلت: لا، جعلت التوحيد شركا و الشرك توحيدا. و الله يقول: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين منفكين حتى تأتيهم البينة" فسمى أهل الكتاب كُفّار، فإن قلت: هؤلاء الذين كانوا عهد النبي لا في عهدنا. قلنا: أولا عليكم بالدليل و لم خصصتم ذلك، ثانيا: هل كفر هؤلاء يختلف عن أولئك؟ و ما الفرق؟. فإن قلت: أولئك خاطبهم الله بالبينة. قلنا: الحجة حجتين و هما موجودتين و هما حجة العقل و القران، فمن سمع بالقران و كان قادرا على فهمه، ومستوعبا لمعنى سورة الصمد، ثم لم يأخذ بها فهو كافر، أما القاصر فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

أما قولهم إن قوله تعالى: "و من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه" أنها لا تعني أن النصراني في النار، و احتجوا بالسياق، في قوله تعالى بعد ذلك: "كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" فقالوا أن هذه الآية نزلت فيمن آمن ثم كفر، لا النصراني، و هذا من العجب العجاب، لأنّا نسأل: هل النصارى مسلمون أم لا؟ إن قالوا نعم لزم أن يكون التوحيد شركا و تنقلب الحقائق، و إن قالوا لا، قلنا: إذا لن يقبل منهم بنص الآية. و لا معنى لاستدلالهم بالسياق. فإن قالوا أن الكلام في نصارى اليوم، نقول ما قلناه في كون النظر أول الواجبات، و هذا ما تهربوا للإجابة عليه في كل مرة، و الرد عليهم أيضا يكون بما ذكرناه من سورة البيّنة، فأين الذين آمنوا ثم كفروا في قوله تعالى: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ...".

و مما استدلوا به قوله تعالى: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". نسألهم: هل النصارى اليوم مؤمنون بالله إيمانا كما هو في نفس الأمر؟ أم لا؟ إن قالو: نعم. قلنا لا حول و لا قوة إلا بالله، أي إسلام هذا الذي تدعون إليه، و أي اعتزال تبشرون به. و إن قالوا: لا. قلنا: وعليه استدلالكم بالآية ساقط.

و الآية التي استدلوا بها خاصة بيهود و نصارى زمن الأنبياء الذي آمنوا بهم أو من هم في حكم الفترة، لا نصارى اليوم، و إلا فما حاجة الرب لمخاطبتهم في محكم تنزيله، و أمرهم و نهيهم.؟

و لماذا خصصتم، اتباع الرسول فقط بمن عبد الأصنام لا أهل الكتاب؟

ثم نسأل: هل الإيمان قول و عمل، أو هو قول فقط؟ إن قلت قولا فقط، كنت على مذهب المرجئة، و إن قلت قول و عمل. نسأل: هل اتباع النبي عمل أم لا؟ إن كان عملا فلماذا أخرجتم اتباع النبي من الإيمان؟

بل ادعوا أن صريح العقل معهم، قالوا: أما صريح العقل، فهو عدم جواز التكليف بما هو فوق المستطاع ووجوب العدل في الحساب، فإن ادخل الله عمرواً المسلم الجنة لأنه ولد لأبوين مسلمين وادخل زيداً المسيحي النار فقد ظلمه، والظلم ممتنع ان يقنع من جهته سبحانه. كذلك فإن معظم الناس مقلدة ولا قدرة لهم على النظر في أمر العقائد، بهذا يكون حساب العامة على الاعتقاد تكليف لهم بما هو فوق المستطاع، وهذا ايضاً ممتنع!! أما صريح النقل، فقد نص عليه القرآن في آية محكمة واضحة عامة غير مخصصة فيها وعد لليهود والنصارى بالنجاة ان هم آمنوا بالله واليوم الاخر وعملوا صالحاً. انتهى.

لله در المتنبي حين قال:

كنت فيما كتبته نائم العين = فهل كنت نائم الأقلام

هذا خروج عن محل النزاع أصلا، إذ تكليف ما لا يطاق ليس هذا، فالتكليف على ثلاث مراتب، الأولى ما يمتنع لذاته كجمع الضدين وإعدام القديم وقلب الإمكان واجبا والعكس، والثانية ما يمكن في نفسه ولا يمكن من العبد عادة كالصعود إلى السماء والطيران في الهواء، والثالثة ما يمكن في نفسه ويمكن من العبد أيضا، والمعتزلة قالوا أن التكليف لا يقع إلا في الأخير، فلو وقع في الأولى أو الثانية للزم العبث والظلم والله منزه عنهما. و قوله " فإن معظم الناس مقلدة ولا قدرة لهم على النظر في أمر العقائد، بهذا يكون حساب العامة على الاعتقاد تكليف لهم بما هو فوق المستطاع" فهل عدم القدرة من ذاتياتهم أم لا؟ أو أن التكليف ههنا ممتنع لذاته؟ أو ممكن في نفسه ممتنع عادة؟ و هل هم معدومي القدرة في نفس الأمر؟

لذلك، اعلم أن هذا جاء بما لم يأت به الأشاعرة، فهؤلاء أثبتوا قدرة و إن لم تكن مؤثرة عندهم، و هناك من أثبتها مؤثرة كالجويني و غيره، أما هذا فلم يثبتها أساسا لهم، و التكليف واقع لا محالة، و قد سلب منهم القدرة، و الله أثبتها لهم. ثم اعلم أن الحديث ههنا خروج عن محل النزاع كما أشرت، فالحديث عن القادر على النظر من عوامهم و خواصهم اليوم، خاصة و أن كل ما يدعوا للنظر حاصل، ثم لاحظ، إذ قال في بداية الأمر أن هؤلاء المسيحيين ليسوا كفارا، و الكفّار هم من قال، لا من اتبع، ثم قال أن هؤلاء المسيحيين اليوم لا قدرة لديهم على النظر، دون تخصيص، فهل كبار شيوخهم غير قادرين على النظر.؟ إن هذا لهو الضلال المبين. قال تعالى: "إنهم ألفوا آبائهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون".

و قوله: "فإن ادخل الله عمرواً المسلم الجنة لأنه ولد لأبوين مسلمين وادخل زيداً المسيحي النار فقد ظلمه" مصادرة على المطلوب واضحة فاضحة، فمن قال أن الله يدخل شخصا للجنة لأنه وُلد لأبوين مسلمين و العكس. الله يدخله الجنة و النار حسب إيمانه، و الإيمان قول و عمل.

فإن قلت: هؤلاء أيضا يقولون و يعملون.

قلت: الله يقول "فاعلم أنه لا إله إلا الله" فلا عبرة بالقول دون البرهان و قد مر الكلام في التقليد و وجوب النظر بما لا يحتاج لمزيد. أما من هو غير قادر على النظر فهو معذور لقوله تعالى "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" لكن

ليس كل المسيحيين غير قادرين على النظر، وهذا رمي لكل مسيحي بالعجز دون برهان و استقراء تام، بل فيهم العالم الجاحد و هؤلاء يعرفونهم كما يعرفون آبائهم.

قال تعالى: "قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله و الله شهيد على ما تعملون، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا و أنتم شهداء و ما الله يغافل عما تعملون" و الآيات ههنا آيات النبي صلى الله عليه و سلم، و خاطبهم الله بأهل الكتاب إلزاما لهم للإيمان بالكتاب و تصديقه. ثم تأمل، فإن الله هنا كأنه يقول: يا رسول الله، قل لأهل الكتاب المعاندين المستكبرين، لأي سبب تكفرون و الله يعلم ما تسرون و ما تعلنون، و فيها توبيخ، و إرشاد، و تزكية، فالله عالم بما في الصدور.

ثم تأمل، فالله قال "يصدون" و الصد هو المنع و الصرف، أي لم تصدون المؤمنين بالله عن الإيمان، و تصرفونهم عن الحق. فتأمل هذا الكلام فإن فيه فائدة للرد على الادعاء، فهل يصح أن نقول أن هؤلاء أيضا معدومي القدرة؟ إن قلت نعم، هدمت الإسلام و قواعد الأساس و الاعتزال. أو هل يصح أن نقول أن الله قصد ههنا من أحدث التثليث؟

و إن شئت زدناك بيانا، يقول تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين". فهل الخطاب ههنا موجه لمؤمني اليوم أم لمؤمني عهد النبي عليه الصلاة و السلام.؟

إن قلت: هو لا يخصنا. قلنا: عليك بالبرهان. ثم هل يجوز أن نطيع فريقا من الذين أوتوا الكتاب اليوم في شبهاتهم و طعنهم في القران نفسه و النبي صلى الله عليه و سلم؟. فإن قلت: الله خصص فقال: "من الذين أوتوا الكتاب"، لا يزيد في قولكم شيئا، إذ لمَ لمْ تجوزا أن يكون المراد منهم أولئك الذين يطعنون في الكتاب حصرا؟ و هؤلاء عرفوا الحق و الكتاب و جعلوه وسيلة للإضلال.

ومما استدل به القوم قوله تعالى: "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة...". و من هم في هذه الآية يقصد بهم طائفة قليلة عاصرت النبي، آمنت بالنبي، و اتبعته، و المفسرون يقولون أنهم النجاشي و جماعة من اليهود الذين ثبتوا على الحق و آمنوا بمحمد صلى الله عليه و سلم المبشر به في الكتب الإلهية. و قال في الآخَرين "و أكثر الفاسقون". و عن ابن عباس أنه قال: لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية، و أسيد بن عبيد و من أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا و لو كانوا من أخيارنا لما تركوا دين آبائهم، و قالوا: لقد خسرتم حين استبدلتم بدينكم دينا غيره، فأنزل الله تعالى: ليسوا سواء –الآية–. انتهى.

و عليه يظهر أن استدلالهم بالآية ساقط، بل مردود عليهم. لكنّا نقول هذا على فرض اعتبار الرواية، فإنها تبيّن بعض المصاديق، و الآية الشريفة، تشمل جميع أهل الكتاب قبل الإسلام و حين الدعوة، وأما بعد استقرار الدعوة، فلا تنفعهم أعمالهم لأنهم مأمورون بالإيمان واتباع تعاليم و شريعة النبي محمد عليه الصلاة و السلام، و إلا لم يخاطبهم الله بالأمر و النهي، طالما أنهم يحكمون شريعتهم.

في الأخير أذكر ما قاله قاضي القضاة: شهادة أن لا إله إلا الله لا تنفع إلا مع العلم بالله وبالله واحدا لا ثاني له، وأن محمدا رسول الله لا تنفع إلا مع العلم بصحة نبوته ومع قبول شريعته. انتهى

في كلامه ما يكفي وما يختصر ما ذكرناه من قبل، والحمد لله رب العالمين.

كتبه فقير ، راج عفو ربه.